شرق أوسط كبير

منصور الطورة ❖

أَدخل مستشفى خاصّاً في عمّان، فيوقفني رجالُ المارينز عند المدخل الرئيسي. يفتّشون ملابسي، يستهزئون بآدميتي، ويتهكّمون على عروبتي. وبشقّ النفس أستطيع إقناعَهم بأنّي مجردُ إنسان مريض يريد مراجعةَ الطبيب، وأنّي لست إرهابيّاً، وأنّي لا أقاوم شيئًا في حياتي، لا شيء على الإطلاق، حتى لو احتُلّ وطني.

اقتنعوا وأدخلوني.

طُلب إليّ بدءًا مراجعةُ السجلّ. كان پول وولفوويتز يجلس خلف الكاونتر مبتسمًا. تبادلنا الابتسامات كندَّيْن لا وجود لأيّ صراع بيننا. وبكلّ ما يملك البنكُ الدولي من إنسانية، طَلَبَ إليّ أن أدفع ٥٠٠ دينار تأمينَ الدخول. دفعتُ بكلّ هدوءٍ مرحلةَ السلام، متسائلاً مع نفسي: «ما ألطفَهم لحظةَ قبض النقود.»

تمّ تحويلي من الطوارئ إلى قسم الباطنية. وهناك كانت الروعة: كونداليزا رايس تَلْبس مريولاً أبيض، والمكان يعجّ نورًا.

قررتْ كونداليزا أن تقيس ضغطي، فوضعت الجهازَ حول أعلى ذراعي، وبدأتْ بكلّ رفقٍ ترفع الضغط : ١٠٠، ٢٠٠، ٧٠٠، ١٠٠٠، ١٥٠٠، ٣٠٠٠، حتى قَطعتْ ذراعي.

لحظتَها تجرّأتُ بالسؤال: «لماذا؟»

اعتذرتْ وأخبرتني بلطفٍ أنّ هذه هي «الفوضى الخلّاقة.»

وكأيّ خطإٍ طبيّ يحدث في الأردن، تم استغفالي وتجاهلي، وأُخذتُ إلى قسم الجراحة (بشر وبلدان). هناك أُخبرتُ بأنّ الطبيب، كبيرَ المستشارين، مصمِّم على مساعدتي، ولكنّ عليّ الانتظارَ حتى ينهي كلامَه مع الله. بعد برهة دخل الرئيس بوش، وأخبرني برفق أنّه رئيسُ قسم الجراحة، وأخذ يجسّ ذراعي. عاملني بلطف. طلب إليّ إجراءَ كافة التحاليل، وأخذ يحدّثني عن الديموقراطية، وحقوقِ الإنسان، وعن ضرورة الإصلاح في عالمنا العربي.

لقد كان د. بوش دمثًا جداً. وحقيقةً أعجبني ما يقول، وأنساني ما بُتِرَ من جسدي.

قبل أن يغادر الدكتور بوش نَظرَ إلى مساعده بلير، وقال بلغةٍ طبيّةٍ متكبِّرًا بإنجليزيته الطلقة:

ـ لقد تغيّرتْ قواعدُ اللعبة.

أومأ الممرِّضُ المسكينُ بالفهم والموافقة.

❖ ❖ ❖

في صبيحة اليوم التالي كنتُ مجردَ جثّةٍ مجهولةِ الهوية على ضفاف دجلة.

عمّان

❖ ـ طبيب أسنان وكاتب شابّ من الأردن.